

لَسْعةٌ من "نار جهنم"

بقلم أدما حبيبي

توقفتُ سيارةُ الشرطة على بابِ المحل، ونزلَ منها شرطيّان وتوجَّها إلى داخلِ المحل الذي أملكه لميكانيك السيارات الألمانية. وعندما اقتربوا سألوها عن بيتر Peter فقلت لهما: أنا بيتر. قالوا: أنت موقوفٌ لأنك هاربٌ من القانون. وسرعانَ ما قيَّدَا يديَّ الاثنيتين بالقيود وتلياً عليّ مجموعةٌ من الجُمَل تتعلَّقُ بحقوقِي كمواطن، ممَّا زادني رُعباً وهلعاً. وبدتْ معالمُ الخوف على وجهي، ورحتُ أرتجفُ من جرّاء هذا الحدثِ الذي يجري لي وعلى مرأى من أصحابي والعمّال الذين يعملون لديّ. وأحسستُ للوهلةِ الأولى وكأنني في حلمٍ لا بل في كابوسٍ ثقيل لا أستطيعُ النهوضَ منه. ولم تمضِ دقائق ، حتى وجدتُ نفسي أنزلُ من سيارة الشرطة وأتوجَّه وأنا مقيّدُ اليدين إلى داخلِ المخفر لكي يأخذوا إفادتي وصورتي وبصمّاتي.

وأنا في غرفة الاستجواب بدأتُ أدركُ عظمَ الخطأ الذي ارتكبته في حقّ فتاةٍ مرافقةٍ ظهرتُ أمامي فجأةً بينما كنتُ أقودُ السيارة في اليوم السابق. كانت تتزلّج في وسط الشارع على Skate Board في غير المكان المخصص للمشاة. عندها، ضغطت على الفرامل) بسرعةٍ لكنني لم أستطع التوقف، فصدمتُها. فطارت في الهواء وسقطت على الأرض مغشياً عليها. ومن هول تلك الصدمة لم أعدُ أعرف ماذا أفعل. وعلى جناح السرعة تركتُ كلَّ شيء وهربتُ. نعم، هذه كانت غلطتي الكبرى أن أترك مكان الحادث وألوذ بالفرار ظناً مني أنّ الأمر سينتهي. والآن ها هم قد قبضوا عليّ بعد أن عرفوا رقم السيارة التي كنت أقودها. فلقد ذهبوا لكي يلقوا القبض بادئ ذي بدء على صاحبها الذي هو زبون عندي، فأخبرهم أنّ السيارة كانت بالفعل سيارته لكنّها في التصليح، وأرشدتهم إلى محلي. وهكذا (يا صاحبي) ظللتُ قابعاً في السجن مدة شهرين كاملين قبل أن يستطيع محاميّ إخراجي من هناك. وقد تكلفت مبالغ باهظة بلغت أكثر من مئة ألف دولار كان عليّ أن أدفعها حتى لا تبقى هذه الغلطة وصمة عارٍ وتحسب لي جُنحةً في سجلي الشخصي.

ولكن وعلى الرغم من أنني صرتُ حراً، ظللتُ أشعر بأنني مقيّد في الداخل، أسيرٌ لعاداتي وشهواتي. كنت ورفيقي نصاب الفتيات ونخرج معهن لمجرد التسلية وقضاء الوقت مثلنا مثل أي شاب في هذا العالم. إلى أن أتى ذلك اليوم المشؤوم الذي تعرّضتُ فيه أنا إلى حادثٍ مروّعٍ أفعدني طريح الفراش مدة أشهر ثلاثة اخترق فيه الألم إلى حنايا نفسي الداخلية. إذ وبينما أنا في مكان عملي ذات يوم، إذا بصاحبي من المحل الآخر للسيارات يأتي إليّ ويطلب مساعدتي له في تصليح سيارة ألمانية BMW عجزَ هو ورفاقه عن التشخيص الصحيح للمشكلة فيها. وبينما كنت أقوم بمساعدتهم في تصليح إحدى القطع، حصل خطأ من قبيل أحد الأفراد ممَّا أدى إلى انفجار فجائي. وعلى جناح السرعة اشتعلت النار وراحت تلتهم يديّ الاثنتين. وصرت أصرخ من وجعي

وأنا أنظر إلى النار وهي تحرق جلدي حرقاً وتمتد إلى ساعديّ. وبدأت أفقر من دون تفكير. وحين وصل المسعفون إلى المكان باسروا بصبّ الماء المعدني على يدي الاثنتين اللتين صارتا مسلوختين من الجلد. وكانوا إذا توقفوا لحبضة، أقوم أنا بالصراخ بملء صوتي. فالألم فظيع و بدا لي الموت أخفّ وطأةً من آلام الحريق في الجسم. وعندما وصلنا إلى المستشفى، قلت للأطباء: "أرجوكم اقطعوا يدي الاثنتين فأنا لم أعد أحتمل الوجع." لم أشعر بحياتي قط وجعاً كهذا . لكنّ الأطباء هدأوا من روعي وقاموا بكل عناية بتضميد جروحي البليغة في كلا الساعدين. وبعد انقضاء فترة النقاهة، حان الوقت لكي يُجرّوا لي عملية زرع لجلدٍ أُخذَ من فخذي ليغطّي مكان الجلد المحروق. وهذه المرحلة كانت صعبةً للغاية إذ عانيت فيها الكثير. وخاصة يومَ فكّ الضمادات. إذ وُضع ساعداي الاثنان في مغطسٍ من الماء الدافئ، وجاءت الممرضة كيما ترفع الضمادات الملتصقة بالجلد الجديد الذي طُعِمَتْ فيه يداي. وعلى الرغم أنها حاولت نزعها بتؤدة إلا أنني لم أحتمل ورحت أصرخ وأبكي من شدة الألم. وحين انتهت من الأمر كنت على وشك أن أفقد وعيي. وعندما عدت إلى بيتي مكثت فيه ثلاثة أشهر كيما أتعافى كلياً من هذا الحادث الأليم الذي لم يؤثر على جسدي فحسب بل على نفسي أيضاً. وصرت أتساءل في كل يوم أفضيه في الفراش، عن الله وعن سبب سماحه لي باجتياز هذه المحنة الصعبة. وتزاحمت الأسئلة في رأسي ولم أجد لها جواباً. نعم لم أكن أهتم بالله ولم أكن أعرف عنه شيئاً. أما الآن فصارت تدور في مخيلتي أسئلة عديدة عنه تعالى .

وفي إحدى الأمسيات أخذت جهاز التحكم بين يدي و شرعتُ ألقُبُ في محطات التلفزيون. فإذا بي أتوقّف عند برنامجٍ ناطق باللغة الأمريكية. وكوني أرمنياً مهاجراً من سوريا إلى أميركا، شدّني البرنامج كما جذبني المتكلم جداً. وبينما أنا أسمع وأشاهد بشغفٍ وشوقٍ كبيرين، إذا بالقس ينطق بكلامٍ مستي أنا في الصميم إذ قال: "أنت يا من تسمع وتشاهد، ربما تكونُ قد لُسعت يداك في النار، وتألمتَ جداً من جرّاء هذه الحروق. لكن اعلمْ أنه في يوم من الأيام سوف يلقى جسدك كله في جهنم حيث النار لا تطفأ. وهناك سوف تحرقك النار إلى أبد الآبدين، إن لم تندم الآن عن خطاياك وتتبّ وترجع إلى الله وتؤمن بشخص الفادي والمخلص الوحيد يسوع المسيح." وقفت مذهولاً أمام جهاز التلفزيون، وصرت أتساءل: مَنْ قال لهذا الرجل أنني محروق اليبدين، وأني متضايقٌ جداً أيضاً؟ مَنْ كان يصف حالتي الداخلية بالضبط وكأنه سمع عني مسبقاً. لكن من أين؟ ومن قال له عني؟ قمت للحال ودوت عنوان الكنيسة الظاهر على الشاشة، ولما عرفت موقعها ذهبتُ يوم الأحد باكراً وحضرتُ الاجتماع. وهناك تعرّفتُ على القس بيرج جامببزيان Berge Djambazian ، صاحب البرنامج التلفزيوني في غلنديل ، كاليفورنيا. وأخبرته بما حصل معي. فشرح لي بالتفصيل عن محبة الله لكل إنسان ، وكيف أنّ الله بيّن محبته بواسطة شخص الفادي يسوع المسيح الذي أتى لكي يموت بدلاً عنه وينقذه من النار الأبدية. عندها وقعتُ على الأرض وسجدتُ للرب وطلبتُ بدموع أن يغفرَ لي خطاياي ، ويمنحني حياةً جديدة . وبالفعل، لقد غيرَ الله حياتي وأراني طريقاً أفضل. ومنذ ذلك اليوم، وأنا أحضرُ الكنيسة والاجتماعات وقلبي مليءٌ بالفرح

والسرور. نعم يا صاحبي العزيزين (أدما وشكري) لقد غيرَ الله طريقي ، كما غيرَ اتجاهَ سيرِي. وليس هذا فحسب، بل بعد أن كانت حياتي ظلاماً دامساً، ليس فيه بريقُ أمل، وجدتُ النورَ في نهاية النفق المظلم. أجل، نور المسيح هو الذي سطع في قلبي وغيرَ حياتي رأساً على عقب. ولا يسعني إلا أن أقول مع صاحب المزمور " أَمَّا أَنَا فَكَادَتْ تَزَلُّ قَدَمَايَ. لَوْلَا قَلِيلٌ لَزَلَقْتُ خَطَوَاتِي" (مزمور ٧٣: ٢) بالحق لقد نشلني من الانزلاق وثبتت خطواتي فعلاً. وأنا الآن أشكر الله لأنني أقوم بخدمته في الكنيسة، ولقد وهبني الله امرأة فاضلة وباركنا الرب بولدين هما ثمرةُ حبنا. يا لمعاملاتِ الله العجيبة مع الإنسان. لقد استخدم كلَّ ما مررتُ به من مشاكل في حياتي لكي يقربني إليه تعالى، ويجذبني إلى حظيرته. وما ظننته يوماً اختبارَ الموت في الحريق، صار لي اختبار الحياة ومعرفة الطريق الحق. وما قاله النبي داود في المزمور ينطبق علي تماماً: " فَهَنَّاكَ أَيضًا تَهْدِينِي يَدُكَ وَتُمْسِكُنِي يَمِينِكَ." (مزمور ١٣٩: ١٠) نعم إن الله أمين وبار وهو صالح وإلى الأبد رحمته. فشكراً له على الدوام.

ب . م (كاليغورنيا)